البحوث العربية والتاريخية

تميم وما قيل فيها

تؤلّف «تميم» تجمعاً كبيراً للعرب، فقد كانت قبائل عدّة تنتمي إليها، وهي كعب بن سعد بن زيد مَناة، وحنظلة بن مالك بن زيد مَناة، وهم البراجم، وبنو دارم، وبنو زرارة بن عدس، وبنو أسيد، وعمرو بن تميم. وقد امتلأت منهم البلاد، وكانوا أهل منعة وعدد وبأس ونجدة، وأصحاب فصاحة وشعر(١). وتميم تنتسب إلى أدّ بن طابخة بن إلياس بن مضر(٢). ومن هنا قال فيهم ابن حزم: أكبر قواعد العرب(٣). ولعلّ هذا التجمّع الكبير من العرب الذي يضمّ جمهرة من القبائل دليل على أنها أفادت هذا الشمل على تراخي العصور والأحقاب.

سكنت تميم المواطن الشرقية من أرض نجد، وهي تمتدّ فيها من الشمال إلى الجنوب، وجُلّها مفاوز وصحارى لا يهتدَى لمشاكلها، وماؤها من الآبار كما يستفاد من تاريخ الطبري(٤).

وقد أفادنا في هذا القلقشندي فأثبت: أن بلادهم بأرض نجد دائرة من هنالك على البصرة واليمامة، وامتدّت إلى العذيب من أرض الكوفة(٥).

وقال البكريّ: «ثم مضوا حتى خالطوا أطراف هجر، ونزلوا ما بينها وبين اليمامة، ووقعت طائفة منهم إلى عمان، وخالطوا عامر بن عبد القيس في بلادهم قطر، وامتدّت منازلهم إلى البحرين، فالأحساء حيث نفذ بنو سعد بن زيد مناة بن تميم(٦).

---

(١) تاريخ اليعقوبي ١/٢٢٩.
(٢) المصدر السابق.
(٣) جمهرة أنساب العرب/ ٢٠٧.
(٤) تاريخ الرسل والملوك ٢/١٦٩.
(٥) صبح الأعشى ١/٢٤٧.
(٦) معجم ما استعجم ١/٨٨.

وقد كانت تميم كلها بأسرها في اليمامة حيث جاء الإسلام(١).

وتؤلف تميم تجمّعاً بدويًا في عاداتـه وتقاليده(٢). ومن هنا عرف بينهم «الـوأد»، وكأنهم بذلك يتقـون ممـا يمكن أن يجلبه السبي عليهم من العـار في معاركهم مع القبائل الأخرى(٣).

وقـد أثبت الآلوسي في «بلـوغ الأرب»: أنّ الوأد كثير في بني تميم، وكـان السبب في ذلك أن بني تميم منعوا الملك ضريبة الإتـاوة التي كانت عليهم فجرّد إليهم النعمان أخـاه مع دوسر كتيبـة، وكـان أكثـر رجـالـه من بكـر بن وائل، فـاستبـاق نَعَمهم، وسبَى ذراريهم... ثم وفـدت وفـود بني تميم على النعمان وكلّموه في ذلـك فحكم أن يجعل الخيار في ذلك إلى النسـاء، فأيّة امـرأة اختارت زوجهـا رُدَّت عليه، فـاختلفن في الخيـار، وكـانت فيهن بنت القيس بن عـاصم فاختارت سـابيها على زوجها، فنذر قيس بن عاصم أن يـدسّ كل بنت تولد في التراب(٤). غير أن الفقر الذي عرفته البيئة العربية والقسوة التي صاحبته، كان كل ذلك دافعاً لهم على الوأد، وقد ذهبت الآية الكريمة إلى هذا فقال تعالى: ﴿**ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق**﴾(٥).

وقد حفلت كتب الأدب والتاريخ بإشارات تدلّ على مكانة تميم بين العرب في الجاهلية والإسـلام. لقد بوّأ العـرب تميماً المكانـة العالية فكـان منهم حكّام الأسواق(٦)، ومن هؤلاء مخاشن بن معاوية بن شريف وابنه ربيعة، وأكثم بن صيفي، وحـاجب بن زراة، والأقـرع بن حابس، وضمـرة بن أبي ضمـرة(٧).

---

(١) المصدر السابق ١/ ٩٠.

(٢) المجتَبر/ ١٥٦ ـ ١٥٧.

(٣) المستقصى في أمثال العرب ١/ ٢١٧.

(٤) بلوغ الأرب ٣/ ٤٢ ـ ٤٣.

(٥) ٣١ سورة الإسراء.

(٦) المحبَّر ص ١٨٢.

(٧) المصدر السابق ص ١٣٤.

وكان هؤلاء العرب لا يبرحون «منى» في الحج حتى يجوز صاحب الموسم من تميم(١). إن صاحب الموسم هذا الذي له الإجازة في الحج سعد بن زيد مناة، ومازن بن مالك بن عمرو، ومعاوية بن شريف بن جَردة، وصلصل بن أوس ابن مخاشن، صفوان بن عطارد بن شجنة بن عطارد(٢)، وإلى هذا أشارَ جرير:

ومنّا من يجيز حجيج جمعٍ وإن خاطبتُ عزَّكُمُ خطابا(٣)

وليس شيئاً أقلّ من هذه المكانة «الاجتماعية الجانب الأدبي، ذلك أن تميماً في الجاهلية كان فيها من الشعراء غير واحد من المشاهير، وفيهم أوس بن حجر، شاعر مضر في الجاهلية(٤)، وعبدة بن الطبيب(٥)، وعلقمة الفحل(٦)، وسلامة بن جندل(٧)، ومالك ومتمم ابنا نويرة(٨)، والسليك بن السلكة(٩)، والعجاج وابنه رؤبة(١٠)، والفرزدق وجرير(١١).

وقال أبو عبيدة: ليس في الإسلام مثل حظّ تميم في الشعر وأشعرهم جرير والفرزدق(١٢).

---

(١) المصدر السابق ص ١٨٢ ـ ١٨٣.

(٢) المصدر السابق، وانظر جملة هذا كله وغيره في «لهجة تميم» لغالب المطلبي (رسالة ماجستير ص ٩ ـ ١٦).

(٣) الديوان ص ١٩.

(٤) الأغاني ١١/ ٧٤.

(٥) الشعر والشعراء ٢/ ٦١٢.

(٦) المصدر السابق ١/ ١٤٥.

(٧) المصدر السابق ١/ ١٩٢.

(٨) المصدر السابق ١/ ٢٥٤.

(٩) المصدر السابق ١/ ٣٨١.

(١٠) المصدر السابق ١/ ٤٩٣، ٤٩٥.

(١١) المصدر السابق ١/ ٣٧٤، ٣٨١.

(١٢) الأغاني ٢١/ ٣٠٩.

وإذا كان هذا حظّ تميم فإن حظهم في الخطابة واللسن لا يقل عنه، فمن خطبائهم أكثم بن صيفي(١)، وحاجب بن زراة(٢)، والأقرع بن حابس(٣)، والأحنف بن قيس(٤).

وهي مع كل هذا مشهود لها بالفصاحة بين العرب، ذكر المبرّد في «الفاضل»: «أن رسول الله ـ ﷺ ـ ورد عليه الوفود فأقرأ الأخماس، كل خمس على لغته، فكان أعرب القوم تميم»(٥).

وقال أبو عمرو بن العلاء: «أفصح العرب عليا هوازن وسفلى تميم»(٦). ومن أجل هذا كانوا ممّن «نُقلت العربية عنهم، وبهم اقتدي، وعليهم اتّكل في الغريب، وفي الإعراب والتصريف»(٧).

أقول: وبعد هذا العرض لمكانة تميم في التاريخ وحضورها في الأدب القديم شعراً ونثراً أودّ أن أثبت شيئاً يتنكّر إلى حماسة الشادين بالقول بـ «اللهجات» الذين يحسبون أن للقبيلة عربية خاصة، وأنت تخلص فيما مضوا فيه إلى أن هذه «العربية الخاصة» تختلف عن عربية القبيلة الأخرى.

ومما لا شك فيه أن لتميم صلات ودّية أو غير ودّية مع القبائل الأخرى، ومن هذه بكر بن وائل، قبيلة كبيرة، لعلها مثل تميم في كثرة العدد. وكان بينها وبين تميم صراع شديد في الجاهلية، وما كان للإسلام أن يأتي على كثير من

---

(١) الإصابة ١/١١٠ ـ ١١١.

(٢) المصدر السابق ١/٢٧٣.

(٣) خزانة الأدب ٣/٢١٩.

(٤) طبقات ابن سعد ٧/٩٢ ـ ٩٧.

(٥) الفاضل ص ١١٣.

(٦) الصاحبي ص ٥٧، والمزهر ١/٢١١. وفي العمدة ١/٨٨: أن أبا عمرو بن العلاء قال: «أفصح العرب عليا تميم وسفلى قيس» أقول: وهذا الاضطراب في المصادر يدعونا إلى التقليل من حماستنا في الاعتماد على هذه النقول.

(٧) المزهر ١/١٢٨.

هذا الصراع، إذ سرعان ما بدا في عصر بني أمية(١). ومن مشاهد هذا الصراع ما كان في أيام العرب(٢).

وقد كان مثل هذا بين تميم وقيس، والأحداث بينهما معروفة في كتب الأدب والتاريخ(٣). ولِمَ لا يكون هذا وللبيئة الجاهلية تقاليدها في الغزو والسلب والنهب، ومما يتأتّى عن ذلك من قتل وسفك دماء، ثم ما يكون بعد ذلك من الثأر للقتلى. وقد كان شيء من ذلك بين بطون تميم وأقسامها التي احتلّت رقعة فسيحة في شرقي نجد من الشمال إلى الجنوب كما بيّنا.

وأودّ أن أختم هذه «المقدمة» فأقول:

لو أن هذا الانتماء إلى القبيلة يفترض فيه أن تكون لكل قبيلة عربية خاصة، فهل كان لنا أن نواجهها في شعرهم؟ لم يكن شيء من هذا لدى أولئك الشعراء الذين انتسبوا إلى تميم، والشعراء الذين انتسبوا إلى غير تميم من القبائل الأخرى. لم نجد هذه الخصائص التي تؤسس عربية خاصة لدى الشعراء الذين انتسبوا إلى بكر بن وائل، ولا لدى الشعراء الذين انتسبوا إلى قيس، ذلك أن عامّة هؤلاء وعامّة أولئك قد مضوا في إعرابهم على المشهور المتفق عليه من خصائص لغة مشتركة.

وإذا كانت تميم قد توزّعت بطوناً فتفرّقت في مواطنها الفسيحة التي امتدّت من الشمال إلى الجنوب، ومن شرقيّ نجد إلى اليمامة وأطرافها حتى اتصلت بهجر وشارفت البصرة، وامتدت إلى العذيب من أرض الكوفة(٤)، فكيف يتهيّأ لنا أن نفترض أن هذا الجمهور التميمي الذي سكن بلاداً مترامية الأطراف يعرب في لغة واحدة؟ لابدّ أن يكون هذا الجمهور مختلفاً في إعرابه أصواتاً ومعجماً.

---

(١) الكامل لابن الأثير ٤/١٣٦ ـ ١٣٨، و٤/٢٠٧.

(٢) العقد الفريد ٦/٥٣ ـ ٥٩.

(٣) المصدر السابق ٦/٦، ٨ و٣٥ ـ ٣٨.

(٤) صبح الأعشى ١/٣٤٧.

غير أن العربية المشتركة كان لها حضور، والدليل على هذا ما ورثناه من أدب الجاهلية، فهل اختلف شعر امرىء القيس عن شعر الأعشى، وكل منهما ينتمي إلى قبيلة تبتعد في موطنها عن القبيلة الأخرى؟.

ونعود إلى لغة التنزيل العزيز فنجد أنها كانت من عوامل تثبيت العربية العامة المشتركة. وإذا كانت هذه اللغة الشريفة قد نزلت في حاضرتي الحجاز: مكة والمدينة، فإن ذلك يعني أن الخصائص اللغوية التي أثبتها اللغويون والنحاة في لغة الحجاز واضحة فيها، فأين هي؟ لم نعرف في لغة التنزيل ما ندعوه بتسهيل الهمزة التي أثبتها أهل اللغة على أنها من خصائص لغة الحجازيين، ولم نجد أشياء أخرى غيرها، وسنعرض لها في إثبات الفروق بين الحجاز وتميم.

لا أنكر أن العربية كانت متوزعة في لغات عدة، ولا أدعوها «لهجات» لأن ما ندعوه «لهجة» في عصرنا شيء افتعلناه، وليس من ملاك «اللهجة» اشتمالها على الخصائص اللغوية الواسعة التي يعرب بها جماعة تختلف عن نظائرها لدى آخرين(١).

أقول : لا أنكر وجود «اللغات» وقد عرفنا من ذلك «لغات القرآن» التي

---

(١) انظر مادة «لهج» في «لسان العرب»، واللهجة: اللسان أو طرفه أو جرس الكلام. وقد جاء أيضاً: أن اللهجة هي اللغة التي جبل عليها الإنسان، فاعتمدها ونشأ عليها.

أقول: وكون «اللهجة» هي اللغة كما في «لسان العرب» وغيره من المعجمات، لم يرد في استعمال المعربين، ذلك أن معنى «الجرس» هو المعروف، وقالوا: هو صادق اللهجة، ولا يراد به «اللغة».

ومما تجدر الإشارة إليه أن كلمة «لغة» كانت كثيراً ما تدلّ على لغة جماعة قليلة أو كثيرة، فقد قالوا مثلاً: لغة بني الحارث بن كعب قلب الياء الساكنة إذا انفتح ما قبلها ألفاً، يقولون: أخذت الدرهمان، واشتريت ثوبان، والسلام علاكم (نوادر أبي زيد ص ٥٨). وعلى هذه اللغة قوله تعالى: ﴿إن هذان لساحران﴾ ٦٣ سورة طه، قال أبو الحسن الأخفش: هي لغة بلحارث بن كعب (معاني القرآن للأخفش). على أن «اللغة» في الأعم الأغلب»: دلّت على المعنى العام، فقالوا: لغة العرب، ولغة العجم مثلاً.

وكان لعمر أقوال معروفة حثّ فيها على تعلّم العربية»(١).

وقد نخلص من هذا إلى أن مصادرنا لا تشير إلى ما يتصل باللغات الخاصة لأنها أمر مرغوب عنه، وإن الذي بقي منها إشارات قليلة لا تمكّن الدارس من أن يقف منها على شيء ذي قيمة.

لعل من المفيد أن أشير إلى أن الشاعر قد يلتزم من هذه الظواهر اللغوية مسوقاً إليه بالضرورة أو الحاجة إلى الوفاء بمطلب من مطالب النظم، ومن هذا قول الفرزدق:

أبني كُلَيب إن عَمَّيَّ اللذا قتلا الملوك وفكّكا الأغلالا

فقد جاء في البيت «اللذا» اسماً موصولاً حذف النون منه على ما قيل: إن بني أسد(٢) يحذفونها في لغتهم. لقد اضطر الشاعر إلى هذا لإقامة الوزن، وإلاّ أين هو من بني أسد؟ والبيت شاهد لغوي في حذف هذه النون.

وقد يكون قريباً من هذا قول ذي الرمّة:

أعَن توسَّمْتَ من خرقاء منزلةً ماء الصبابة من عينيك مسجومُ(٣)

ومن الشاهد «أعَن» وهي «أأن»، وتميم وأسد يبدلون الهمزة عيناً، فهل نقول: إن ذا الرمّة جَرَى على «لغته الخاصة»، وهي لغة تميم وأسد؟ لا، لن نقول ذلك، بل نذهب إلى أنه هرب من اجتماع النظيرين، أي الهمزتين لما في ذلك من ثقل، ثم لو أن ذا الرمّة جرى على هذه «اللغة» وهي العنعنة لكان لنا أن نرى «العين» في كل كلمة كانت الهمزة بعض أصولها. لم يكن شيء من هذا.

ومن المفيد أيضاً أن نتعقب هذه الفوائد، وهي فرائد يتيمة، فنقرأ قول أبي ذؤيب الهذلي:

---

(١) كنز العمال ٥/٢٢٨، وصبح الأعشى ١/١٦٨.

(٢) المقاصد النحوية للعيني (على هامش الخزانة) ١/٤٢٣، ونُسب في «شرح شواهد العيني» ١/١٤٣ إلى الأخطل.

(٣) طبقات فحول الشعراء ص٤٧٧ ـ ٤٧٨.

شر بن بماء البحر حتى ترفَّعَت «متى» لجُجٍ خضر لهنّ نَئيجُ

أي : «من لجج»، ومثل هذا قول صخر الغي:

متى ما تنكروها تعرفوها «متى» أقطارها عَلَق نَفيثُ

أي : «من أقطارها». وهذان الشاهدان وردا في مجيء «متى» بمعنى «من» على لغة هذيل(١). وعلى حين لم يأذن أهل العلم ولا الحاكمون لهذا المخلفات اللغوية أن يكون لها حضور في روائع النظم والنثر، بل قد اهتمَّ اللغويون والنحويّون اهتماماً خاصاً بها، وكأنهم أرادوا الوفاء بالناحية التاريخية، فقد سارعوا إلى تسجيل هذه النماذج، وربما وضعوها واصطنعوها، وحملوها على الشعراء كذباً كما سنرى.

لقد استشهد النحاة على مجيء اللام في خبر «لكن» فجاءوا بما نسب إلى المجنون وهو قوله:

يلومونني في حبّ ليلى عواذلي ولكنّني من حبّها لعميد

وقد أشار الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد ناشر «شرح ابن عقيل» أن من المحتمل أن يكون الشارح «ابن عقيل» قد وضعه(٢)...

وفي صدر البيت قوله «يلومونني» مع وجود الفاعل، وهي اللغة التي وسمت بلغة «أكلوني البراغيث» أو لغة بلحارث بن كعب، والبيت كله نُسب إلى المجنون، ويجتمع فيما نُسب إلى المجنون الصحيح والموضوع.

ومما أنشد المفضل الضبيّ ما أنشده أبو الغول الطهوي لبعض أهل اليمن:

أي قلوصٍ راكبٍ تراها طاروا عليهنّ فشُل علاها

واشدُدْ بمَتعَي حَقَب حقواها ناجيةً وناجياً أباها

(١) المقصور والممدود ٢/١٠٣.

(٢) شرح ابن عقيل (الكلام على دخول لام التوكيد في خبر لكنّ).

إن أبـــاها وأبـــا أبـــاها قد بَلَغـــا في المجـــد غايتـــاها

وقال أبو عبيدة لأبي حاتم : إنها من صنعة المفضَّل الضبيّ نفسه(١).

ومما وضعه حمّاد الرواية ونَحَلَه زهير بن أبي سلمى ما استشهد به الكوفيون على جواز استعمال «من» لابتداء الغاية في الزمان قوله:

لمن الديـارُ بقُنَّـة الحَجْـرِ أقوَيْنَ من حججٍ ومن دَهـرِ(٢)

وإذا كان حمّاد هذا قد اشتهر بالوضع، فإن الأمر قد تجاوز هذا الحد إلى آخرين عرفوا بالضبط والصحة، فهذا أبو عمرو بن العلاء يقول : «والله ما كذبت فيما رويته حرفاً، ولا زدت فيه شيئاً إلاّ بيتاً في شعر الأعشى فإني زدته فقلت:

وأنكَرتني وما كان الذي نكرت من الحوادث إلاّ الشيب والصَّلَعا

فألحَقَه الناس في شعر الأعشى(٣)، وقد أورده القالي في «نوادره»(٤) منسوباً إلى الأعشى، وكذلك فعل المرزباني في «الموشح»(٥).

وقد يكون لي أن أختم هذه الألاعيب التي جرَّت إليها حماسة اللغويين والنحاة في السعي وراء الغريب بقول الجرمي:

أهَدَموا بيتك لا أبا لكا وأنا أمشي الدَّألَى سوائكا

فقلت : لمن هذا الشعر، فقال: هذا ما يقوله الضبّ للحِسْل أيامَ كانت الأشياء تتكلم(٦). والبيت من شواهد «الكتاب»(٧).

---

(١) نوادر أبي زيد ص ١٦٤.

(٢) الأغاني ٥/١٧٣، خزانة الأدب ٤/١٢٩.

(٣) مجاز القرآن ١/٩٣، مراتب النحويين ص١٤، مجالس العلماء ص ٢٣٥، بغية الوعاة ٢/٢٣١.

(٤) نوادر أبي علي القالي ص ١٩٨.

(٥) الموشح ص ٥٣.

(٦) الكامل للمبرد ١/٣٥٦.

(٧) الكتاب ١/١٧٦.

ومن هذه الشواهد التي تكلّموا فيها فقالوا: إنها موضوعةٌ الرجزُ المشهور:

أعرفُ منهـا الجيـدَ والعينـانا ومنخـرين أشبَهـا ظبيـانا(١)

وعلى استشهادهم به قالوا: إنه مصنوع. وذكر السيوطي في «الاقتراح»(٢) عن المرزباني أن المولدين قد وضعوا أشعاراً ودسوها على الأئمة فاحتجّوا بها ظنّاً منهم أنها للعرب، ثم ذكر البيت.

على أني لا أنكر أن جمهرة شواهدهم عدا هذه المناكير من الكلام الجيد الصحيح ومما لا يشكّ في نسبته إلى قائليه.

وإنا لنجد طائفة من الشواهد قد نُسبت إلى القبائل، ولكن هذه النسبة لا توحي بالتثبت والصدق. وكأن الأشعار المنسوبة إلى هذه «اللغات» التي خرجَت عن العربية العامّة التي يحسن تسميتها «مشتركة» وردت في تأييد قراءة من القراءات النادرة، في آية من الآيات على أن صاحب القراءة من المعدودين بين أهل القراءات العالية. ومن ذلك قراءة حمزة في قوله تعالى: ﴿**وما أنتم بمصرخيّ**﴾(٣) بكسر الياء، وقرأ كذلك يحيى بن وثاب وسليمان بن مهران، وحمُران بن أعين وجماعة من التابعين(٤).

ونقل قطرب أنها «لغة» بني يربوع، وأنشد:

ماضٍ إذا ما همَّ بالمضيِّ قال لها : هل لك ياتا فيِّ
قالت له : ما أنتَ بالمرضيِّ(٥)

وقالوا في الفعل «يئس» بمعنى «عَلم» في قوله تعالى: ﴿**أفلم ييأس الذين**

---

(١) شرح ابن عقيل ١/ ٦٥.
(٢) الاقتراح ص ٢١ ـ ٢٢.
(٣) ٢٢ سورة إبراهيم.
(٤) النشر في القراءات العشر ٢/ ٨٢٩٩
(٥) مجمع البيان ١٣/ ٢١٢، خزانة الأدب ٢/ ٢٥٩.

آمنوا﴾(١)، وقالوا: منه قول سحيم بن وثيل اليربوعيّ :

أقول لهم بالشِّعب إذ يأسرونني ألم تيأسوا أنيّ ابن فارس زَهْدَمِ

وقالوا : هي لغة النخع وهوازن(٢).

أقول إذا كان سحيم يربوعيًّا فلِمَ جاء شيء من لغة النخع وهوازن في شعره؟ ليس هذا أمراً بعيداً، ولكنه غريب يستوقف النظر.

ومن ذلك «ذو» و«ذات» بمعنى «الذي والتي» في لغة طيّء. حكى الفرّاء:

«بالفضل ذو فضّلكم الله به والكرامة ذات أكرمكم الله بها»(٣).

ومن ذلك قولهم: إن قبيلة هذيل يقلبون الألف في آخر الكلمة ياء عند إضافة الكلمة إلى ياء المتكلم، واستشهدوا على هذا بقول أبي ذؤيب:

سبَقوا هَوَيَّ وأعنَقوا لهَواهم فتُخرِّموا ولكلّ جَنْبٍ مصرعُ(٤)

أقول : إذا كان هذا في لغة هذيل، فلِمَ لا نجده في سائر أشعار أبي ذؤيب، ولِمَ لا نجده في شعر الهذليين الذي وصل إلينا منه طائفة كبيرة؟(٥).

والذي أراه أن هذا من صنع اللغويين وتوشيتهم للنصوص التي وقفوا عليها. وإذا كان أبو ذؤيب قد سلك هذه «اللغة»، أفلا يكون نظير الشعراء الذين ملكوا ناصية اللغة وزُهوا بأنفسهم فراحوا يرسلون القول فيذهب لغة ونصًّا يعتدّ به ويستشهد.

ومن هذا قول الفرزدق :

---

(١) ٣١ سورة الرعد.

(٢) قطر الندى ص ٦١.

(٣) المصدر السابق ص ١٠٤.

(٤) المصدر السابق ص ٢١، ومثل هذا جاء في شواهد «الكتاب» ٣١٨/١: يا ابنةَ عماً لا تلومي واهجعي.

(٥) انظر شرح أشعار هذيل، وديوان الهذليين.

يا مَـــروُ إن مطيّتـــي محبوســـةٌ ترجـو الحباء وربُـها لم ييـــأس(١)

وقول أوس بن حجر :

تنكَّـرتِ منّـا بعـد معـرفـةٍ لَيـ و بعد التصافي والشباب المكـــرَّمِ(٢)

وقول عمر بن أبي ربيعة :

قفي فانظـــري يا أسْمُ هل تعرفينه أهـذا المغَيريُّ الذي كـان يُذكَـــرُ(٣)

ومنه قول لبيد :

يا أسمُ صبراً على ما كان من حَدَثٍ إن الحـــوادث مَلقـــيٌّ ومُنتَظَـــرُ (٤)

أقول : هذه الأبيات لا يمكن إلاّ أن ننسبهـا إلى سطوة الشعراء وتمكنّهم، ولا أقول: إن الضرورة ألجأتهم فحـذفوا مـن الاسم المنادى مـا حذفـوا، فجاء النحويون ووضعوا باب الترخيم».

لا أريـد أن أذهب إلى أن هـذه اللغـات التي اصطلح عليهـا المعـاصرون «لهجات» غير صحيحة، ولكني أقول: إن ما عنـدنا من فوائد لغوية لا تعين على إقامة بناء لكل «لغة»، وسأعرض للمادة التي وصلت إلينا مما هو خاص بتميم.

وقـد يكون السبـب في هذا منـذ البـدء هو أن العـرب نظـروا في الأفصح والفصيح وغير الفصيح، ولنعرض لهذه البداية التاريخية.

ولنقف على الحديث المشهور الذي حظي بالعناية لدى أهل الحديث، ولدى اللغويين على حدّ سواء، ذلك هو قول الرسول الكريم ـ صلوات الله عليه ـ :

«أنزل القرآن على سبعة أحرف، أو قال: سبع لغات»(٥).

---

(١) الكتاب ١/٣٣٧.

(٢) المصدر السابق ١/٣٣٦.

(٣) من رائية عمر بن أبي ربيعة «أمن آل نُعم...».

(٤) الكتاب ١/٣٣٧.

(٥) الصاحبي ص ٤١. المزهر ١/٢١٠ ـ ٢١١.

قال ابن فارس : خمس بلغة العجز من هوازن، وهم الذين يقال لهم عليا هوازن، وهي خمس قبائل أو أربع، منها سعد بن بكر، وجُشم بن بكر، ونصر بن معاوية، وثقيف.

قال أبو عبيد : وأحسب أفصح هؤلاء بني سعد بن بكر، وذلك لقول رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ : «أنا أفصح العرب ميد(١) أني من قريش، وأني نشأت في بني سعد بن بكر»(٢)، وكان مسترضعاً فيهم. وهم الذين قال فيهم أبو عمرو بن العلاء:

«أفصح العرب عليا هوازن وسُفلى تميم»(٣).

أقول : ومن هنا تدخل «لغة تميم» السفلى في القسم الأفصح من «اللغات»(٤).

وأودّ أن أقف وقفةً قصيرة على الحديث مفيداً من معنى «بيدَ» التي عرض لها شرّاح الحديث الشريف فقالوا: هي «غير» فأقول:

كأنّ الرسول الكريم ـ صلوات الله عليه ـ أراد أن يقول: إنه أفصح العرب طُرًّا لأنه نشأ في بني سعد بن بكر، وإن كان من «قريش».

وهذا يعني أن لغة قريش ليس لها الفصاحة العليا التي عُرفت في بني سعد بن بكر.

---

(١) الفائق ١/١٢٣، النهاية ١/١٠٣ وفيه «بيد» بمعنى «غير».

(٢) الصاحبي ص ٤١.

(٣) المصدر السابق.

(٤) و«اللغات» في هذا النص، والنصوص الأخرى في المصادر القديمة تنصرف إلى ما يدعوه المعاصرون «لهجات». قال ابن دريد في «الجمهرة» (المقدمة ص ٤ ـ ٥): ومثل الحرف الذي بين القاف والكاف والجيم، وهي لغة سائرة في اليمن مثل «جمل» إذا اضطروا قالوا: «كمل».

أقول : ربما لم يصب ابن دريد في قوله، ذلك أنه أراد نطق القاف في عصرنا في اللغات المحكية في بلدان الخليج والسعودية، والعراق والسودان وجهات أخرى، وهو نطق ساميّ قديم ثقيل كنطق الغربيين للحرف (G) .

وقد يكون هذا التأويل صحيحاً، ذلك أن لغة قريش ما كان لها أن تتصف بالنقاء والسلامة لأن مجتمع قريش مجتمع مفتوح يندسُّ فيه أقوام شتّى يأتون حاجين أو قاصدين المنفعة. وليس لمجتمع كهذا أن يكون سليماً مما يعرض للغته وعاداته وسلوكه.

ثم إن الحديث الشريف الذي ذكرناه آنفاً وهو: «أنزل القرآن على سبعة أحرف أو لغات» وقد ذكر الشرّاح ما المراد بالأحرف السبعة أو اللغات السبع، وليس في تلك الشروح ذكر لقريش.

إن تاريخ االقرآن، وما ورد فيه من قراءات يبعد بيسر أن تكون لغة القرآن هي لغة قريش، وسنجد في الفروق بين الحجاز وتميم من الناحية اللغوية ما يؤيّد ما ذهبنا إليه.

ما وصل إلينا من لغة «تميم»

وهذا هو القسم الذي يلي «المقدمة» التي سبقت هذا الذي سأجتهد في جمعة وتصنيفه، وهو من غير شك يتصل شيء منه بالأصوات، وشيء آخر ببناء الكلمة، ثم أعرض لما هو داخل في النحو وأختم هذا القسم بما يتصل بالدلالة.

على أني في هذا القسم ليس لي أن أدّعي أني وصلت إلى لغة تميم على نحو ما يصنع المعاصرون الذين قعدت بهم مادة الدرس الناقصة، ولكنهم ساروا في الطريق الذي لم يوصلهم إلى ما خطّطوا.

قلت بين يدَي هذا البحث أن الدرس الجاد ينفي أن تكون الشذرات التي وصلت إلينا مادة بحث تؤدي إلى تصوّر واف للمسألة.

إن ما يدخل في لغة تميم شيء خاص بالأصوات، على أن هذه المادة بعيدة عن أن تكون كاملة مستوفية للناحية الصوتية، ولكننا سنستقرىء هذه المخلّفات وندرجها فيما يلي هذه الأسطر فنقول:

١ ـ السكون والحركة :

جاء أن تميماً وربيعة يسكنّون العين في «التُلث» إلى «العُشر»، في حين أن أهل الحجاز وبني أسد يضمّون العين في هذه الموادّ(١).

وقال الأصمعي : «الضبُع» بضم العين لغة قيس، وتميم تقول: «الضَبْع» بالإسكان(٢).

ومنه أن تميماً وربيعة يقولون «العُمْر» بتسكين الميم، وأهل الحجاز يضمّون الميم(٣).

---

(١) تفسير القرطبي ٥/٦٣ ـ ٦٤.

(٢) المذكر والمؤنث ١/٨١.

(٣) لسان العرب.

وكـذلك في «عضـد» فتميـم تقـول بتسكين الضـاد، وأهل الحجـاز يضمّونها(١).

ومنه «العُنُق بالإسكان لدى تميم، وكـذلك ربيعة، وأهل الحجاز يضمّون النون(٢).

وليس لي أن أقول : إن سـائر ما ورد على «فعل» من الأسماء يكـون كذا لدى تميم، ولدى أهل الحجاز.

وأضيف إلى هذا أن من قَـرَأ «عُرْب» بإسكان الـراء تبع تميماً في هذا(٣)، وكذلك «رُسل» بالإسكان(٤).

٢ ـ الضم والكسر :

وهذا فيما نستقريه من لغة التنزيل، والمراد بالضم والكسر هو ضم الغاء وكسرها، وإليك هذا: أسـوة : بالضم في لغة تميم وقرأ بها عـاصم، وبالكسر في لغة أهل الحجاز ولغة بني أسد(٥).

رحلة : بالضم في لغة لتميم، والكسر لدى أهل الحجاز(٦).

ثمرة : بالضم في لغة تميم، والكسر لدى أهل الحجاز(٧).

رضوان : بالضم في لغة تميم، والكسر لدى أهل الحجاز. وقرأ بلغة تميم عاصم (١٦٢، ١٧٤ سورة آل عمران)(٨).

---

(١) المذكر والمؤنث ١/ ٣٨٤.

(٢) الأصول لابن السراج ٢/ ٤٨٠ وكذلك المذكر والمؤنث ١/ ٢٨٣.

(٣) البحر المحيط ٨/ ٢٠٧ وهي قراءة أبي عمرو وحمزة في ٣٧ سورة الواقعة.

(٤) الأصول ٢/ ٤٨٠.

(٥) زاد المسير لابن الجوزي ٦/ ٢٦٧.

(٦) إصلاح المنطق ص ١١٥.

(٧) اللغات في القرآن (رواية ابن حسنون) ص ٢٤.

(٨) البحر المحيط ٣/ ٣٩٨.

رُفقة : بالضم في لغة تميم، والكسر لدى أهل الحجاز(١).

زعم : بالضم في لغة تميم، والكسر لدى أهل الحجاز(٢). في حين أن بعض تميم وبعض قيس يكسرون الزاي(٣).

صنوان : بالضم في لغة تميم، والكسر لدى أهل الحجاز(٤).

غُلظة : بالضم في لغة تميم، وقرأ بها أبو حيوة والسلميّ وغيرهما، وبالكسر لدى أهل الحجاز(٥).

قدوة : بالضم في لغة تميم، والكسر لدى أهل الحجاز(٦).

ربّيون : بالضم في لغة تميم، وقرأ بها عبد الله بن مسعود (وهو هذلي)(٧)، والكسر لدى أهل الحجاز.

قرح : بالضم في لغة تميم، والكسر لدى أهل الحجاز(٨).

عشوة : بالضمّ في لغة تميم، والكسر لدى أهل الحجاز(٩).

مرية : بالضم في لغة تميم، والكسر لدى أهل الحجاز(١٠).

قثّاء : بالضم في لغة تميم، وقرأ بها ابن مسعود، وبالكسر في لغة أهل الحجاز(١١).

---

(١) إصلاح المنطق ص ١١٥.
(٢) التهذيب ٢/١٥٨.
(٣) البحر المحيط ٤/٢٢٧.
(٤) المصدر السابق ٥/٢٥٧، والكشاف ٢/٥١٣.
(٥) إصلاح المنطق ص ١١٥.
(٦) المزهر ٢/٢٧٧.
(٧) تفسير الطبري ٢/١٢٩ ـ ١٣٠، البحر المحيط ١/٥٣٣.
(٨) اللغات في القرآن ص٢١، ما ورد من لغات القبائل ١/٦٩.
(٩) المزهر ٢/٢٧٧.
(١٠) المصدر السابق ٢/٢٨٧.
(١١) زاد المسير ١/٨٧ (وبنو تميم قرأوا «يعرشون» بكسر الراء على غير المشهور (الجامع لأحكام القرآن ٧/٢٧٢).

على أن مما ينبغي أن يقال : أن الضم في حركة الفاء الذي سبق الكلام عليه ليس خاصاً بتميم، ومن هذا أن «رضوان» بكسر الراء لدى أهل الحجاز هي مضمومة الراء لدى تميم وبكر وقيس(١).

وإن إسكان العين فيما ورد على «فعل» من الأسماء قد يعرض في الأفعال الثلاثية، وليس لي أن أقول: إنه يلاحظ في الكثير منها، فالذي وقفت عليه أن «عَلِمَ» الفعل الثلاثي تسكّن عينه لدى بكر بن وائل وتميم، وقرأ زيد بن علي ﴿بِما رَحْبَت﴾(٢).

٣ ـ ظواهر لغوية أخرى(٣) :

١ ـ كسر حرف المضارعة :

وتكسر تميم وقبائل أخرى حرف المضارعة خلافاً لأهل الحجاز(٤)، فهم يقولون: أنا إعلم، ونحن نعلم، وأنت تعلم، وكذا في المثال والأجوف والناقص إذا كان على بناء «فَعِلَ» بكسر العين نحو: إيجَل، وإخال، وإشقَى. وكذلك المضاعف نحو: إعضَى، وكذلك فيما أوّله همزة وصل نحو: تِستغفر، وتحرنْجِم.

٢ ـ ظاهرة الإتباع :

وهو أن تتبع حركة الفاء حركة العين في الكلمة كما في «شهيق» بكسر الشين، و«بعير» بكسر الباء، وهذا لم يختص بتميم وحدها بل إنه لغة قيس ولغة أسد أيضاً(٥).

---

(١) البحر المحيط ٥/٣٩٨، تاج العروس (رضو)، وانظر: اللسان (ضلل) وكذلك «تاج العروس».

(٢) البحر المحيط ٥/٢٤، وقرأ أبو السمال «حَسْنَ» (٦٩ سورة النساء) بلغة تميم (البحر المحيط ٣/٢٨٩.

(٣) أريد في هذه الظواهر ما اتصل بلغة تميم، وأعني أن ما وافقت فيه تميم غيرها من القبائل خارج عن اهتمامي.

(٤) الكتاب ٢/٢٥٦ ـ ٢٥٧، المخصص ١٤/٢١٦ ـ ٢١٨.

(٥) التهذيب ٧/١٢٢.

٣ ـ أولئـــك :

لغة أهل الحجاز «أوليك» بالياء، وأهل نجد وربيعة وقيس وأسد يقولون: أولئك بالهمـزة. ولابد لي أن أشير هنـا إلى اضطراب المصـادر في عزو الظـواهر اللغوية إلى أصحابها. لقد واجهنا كثيراً فيها أن لغة الحجاز تقابل لغة تميم، ولا سيما في كتب النحو، فهل لنـا الآن أن نجعل «نجداً» في هذه الإشارة الجغـرافية تعني لغة تميم؟.

إن تميماً كما عرفنا من المصادر قد استـوطنت البلاد الواقعة شرقي نجد ممتدة إلى الشرق حتى اليمامة ومنبسطة مـن الشمال إلى الجنوب، وإذا كان هذا فليس كل نجد مواطن تميم.

وكيف لي والحالة هذه أن أفهم على وجه مـن الضبط قول المصادر مثلاً: لغة تميم وقيس وكثير من أهل نجد(١).

ولغـة تميم وربيعـة وأسد وجميع أهل نجـد(٢). ولغـة تميم وكثير من قيس وأهل نجد يقولون(٣)...

وقـد نسمع قـولهم: «لغـة نجـد وتميم خـاصـة» أو «لغـة تميم وأهل نجد»(٤).

إن أقوال هـذه المصادر تكشف عن صفحة من عـدم العلم والضبط الذي يقتضَى في عز والمسائل إلى أصحابها.

ومن هذا الاضطراب نجـد أن لغة «نجد» تقابل أهل الحجـاز فيقال مثلاً: أهل نجد يذكّرون فيقولون: هذا بَقَر، وأهـل الحجاز يؤنثون فيقولون: هذه بقر،

---

(١) زاد المسير ١/١١٩.

(٢) معاني القرآن للفـراء ٢/٢٩٤، التهذيب ١٤/٢٩٨ (فتن)، فَحَل وأفحَلَ للسجستاني ص ١٩٩، والتبيان في تفسير القرآن للطوسي ٣/٣٠٨، تفسير القرطبي ٥/٣٦٣.

(٣) المخصص ١٧/٢٤، تفسير الطبري ٢/٤٤٦، زاد المسير ١/٦٥.

(٤) إصلاح المنطق ص ٣٠، المخصص ١٥/٧٤، البارع ص ٤٢٤، البحر المحيط ١/٢٨٢.

وكذلك كل جمع كان واحده بالهاء وجمعه بطرح الهاء(١).

إن استعمال الشعراء للكلمة لا يعني أنهم التزموا لغة قبيلتهم، ذلك أن الشاعر محكوم بالوزن فهو يلجأ إلى اللغة التي تجيزها أيّة قبيلة كقول الفرزدق:

أبا حاضرٍ من يَزنِ يُعرف زناؤه ومن يشرب الخرطوم يُصبحْ مُسكرًا(٢)

وقوله :

أخضبتَ عودك للزناء ولم تكن يوم اللقاء لتخضبَ الأبطالا(٣)

أقول : لم يمدّ الفرزدق «الزنا» أخذاً بتميميّته، ولكنه صار إليها لما يقتضيه الوزن، والدليل على ذلك أن «الزنا» بالقصر ورد في شعره وشعر جرير، والقصر لغة أهل الحجاز، والقصر في الزنا أكثر، وبها لغة التنزيل، وإن وردت لغة المد فيها في طائفة من القراءات(٤).

ومن هذا الاضطراب أننا نرى قولهم: «لغة تميم وأهل نجد»(٥).

ومن هنا لا يمكن أن يأتي الدارس الجادّ بشيء يفرضه علينا فيعنون كتاباً له مثلاً به «لغة قريش» أو «لغة الحجاز» أو «لغة بكر بن وائل» أو «لغة تميم».

ونعود إلى «أولى» فنرى كتب النحو تنسب القصر إلى تميم فيها(٦).

---

(١) التبيان في تفسير القرآن ١/٣٩٨، وهل لنا أن ندرك المراد بـ «نجد» هو لغة تميم كما يتضح ذلك مما ورد في البحر المحيط ١/٨٣ و٥/٥١١ و٢/٣٨٠، والتسهيل ص ٨٤. هذا كله يثبت اضطراب المصادر فلا يمكن أن نكون على بيّنة من أمر هذه النسبة اللغوية.

(٢) زاد المسير ٥/٣١، ولم أقف على البيت في الديوان.

(٣) المصدر السابق ٥/٣٢، وخلا الديوان من البيت الشاهد.

(٤) مجاز القرآن لأبي عبيدة ص ٢٧٧، زاد المسهر ٥/٣١.

(٥) إصلاح المنطق ص ٣٠، البارع ص ١٢٤.

(٦) قطر الندى ص ١٠٥.

واجتزىء بالذي ذكرت مما يتصل بالأصوات الصائتة (الحركات) فأتحوّل إلى ما كان من الأصوات الصامتة فأقول: ومن هذا أن السين تبدَل صاداً مع الطاء والقاف والخاء والغين(١) كما في «صراط» و«صَقَر» و«صخب» و«لصق» و«صغد» وغير ذلك، في حين يُبدَل السين زاياً لدى ربيع كما في قولهم: لزق في «لسق».

ومن ذلك ما عرف بـ «الكشكشة» التي عدَّت من اللغات المذمومة كما أشرنا في «المقدمة» وهي لغة بني أسد أيضاً(٢). وحدّ الكشكشة إبدال الكاف شيناً فيقول: «عليشَ» بمعنى «عليكَ»(٣)، وأنشدوا:

فعيناش عيناها وجيدش جيدها ولونش إلاّ أنها غير عاطلِ(٤)

وقال آخرون : بل يصلون بالكاف شيناً فيقولون: «عليكش»(٥).

أقول : كأن ابن فارس لم يتأكّد من حدّ الكشكشة، والذي أراه أن الشين ليست شيناً صريحة بل هي المشوبة ببعض الجيم على لغة العراقيين وأهل الخليج في عصرنا في كل كاف وليس كاف الخطاب وحدها.

ومن ذلك ما يسمَّى «العنعنة» من المواد التي جعلت من اللغات المذمومة، وهي لغة تميم وبني أسد(٦). وتتلخص بقلبهم الهمزة عيناً في بعض كلامهم، فهم يقولون: سمعت «عنّ» فلاناً قال كذا، يريدون: أن فلاناً...

وروِيَ في حديث قيلة(٧): «تحسَب «عنّي» نائمة».

---

(١) التهذيب ٨/ ٢٧١ (لصق)، تاج العروس (لصق).
(٢) الكتاب ٢/ ٢٩٥، شرح الكافية ٢/ ٤٥٤.
(٣) الصاحبي ص ٣٥.
(٤) البيت للمجنون كما في الجمهرة ١/ ٢٦، وغير منسوب في اللسان ٨/ ٢٣٣.
(٥) الصاحبي ص ٣٥.
(٦) التهذيب١/ ١١١ـ١١٢، سر صناعة الإعراب١/ ٣٧، والمفصل للزمخشري٢/ ٢١١ـ ٢١٣.
(٧) هي قيلة بنت مخرمة العنبرية الصحابية. انظر الإصابة ٨/ ١٧١ ـ ١٧٣.

قال أبو عبيد : أرادت «تحسب أنيّ» وهي لغة تميم(١).

وقد مرَّ بنا ظاهرة الإتباع كما في «بعير» بكسر الباء إتباعاً لكسرة العين.

وأريد أن أقول هنا: إن هذا الإتبـاع أكثر ما يظهر مع أصوات الحلق كما في «سعيد» و«رغيف»(٢).

وللشبه الكبير في طبيعة أصوات الحلق وصفاتها وقرب أحيازها يتم بينها هـذا الإبدال، ومنـه إبدال العين حـاءً كما في كلمة «العـرجلة»، وهي من ألفـاظ الخيل، فتكون «الحرجلة» بلغة تميـم(٣). وكذا إبدال العين من الحاء في قولهم: «عشمس»، قال أبو عمرو بن العلاء: أصله «عبّ شمس» أي «حبّ شمس» وهو ضوؤهـا، والعين مبدلـة من الحاء(٤). وإبدال الغين من العين في «لعـلَّ» فتكون «لغَنّ»، ومنه قول الفرزدق:

هـل أنتـم عائجـون بنـا لغنّـا نـرى العَرَصات أو أثَر الخيـام(٥)

وقد تقلب العين عنـد بني تميم همزة، والهاء حاء نحو: «أحـدتُ إليه «أي «عهدت إليه»(٦)، وقد جاء قول الراعي:

بانَ الأحبّـة بالأحـد الـذي أحـدوا فلا تمـالك عن أرضٍ لهـا عمـدوا

يريد بالعهد الذي عهدوا(٧).

أقول : إن قلب العين همزة في هذا الشاهـد يخالف ما درج عليه بنو تميم في هذا، والسبب في هذا أن الهمزة مقتضاة لتناسب الحاء الذي أصله الهاء.

---

(١) الصاحبي ص ٣٥.

(٢) الكتاب ٢/٢٥٥، الخصائص ٢/١٤٣.

(٣) التهذيب ٣/٣٢٠، التاج (حرجل).

(٤) الصحاح ٢/٩٣٨، اللسان (شمس)، المزهر ١/٤٨٤.

(٥) الديوان.

(٦) المزهر ١/٤٨٤.

(٧) المصدر السابق.

ومن الظواهر الصوتية لدى تميم تحقيق الهمزة خلافاً للحجازيين وفيهم قريش، فهم يحققون الهمزة في الألفاظ التي على وزن «فَعْل» إذا كان في موضع العين من الفعل ألف ساكنة ما قبلها مفتوح نحو: رأس وفأس وكأس فهذه راس وفاس وكاس، أو ياء ساكنة مكسور نحو: ذيب وبير، أو واو ساكنة ما قبلها مضموم نحو: شوم ولوم(١).

أقول : مما فات اللغويين الأقدمين أنهم جهلوا طبيعة المدّ في حركة الفتح أي ما ندعوه ألفاً، وكذلك الياء والواو حرفيَ مدّ، وتخيّلوا أنها ساكنة، ولم يدركوا أنها، أصوات مدّ، على أنهم قالوا: الفتحة بعض الألف، والكسرة بعض الياء، والضمة بعض الواو(٢).

ثم إن تحقيق الهمزة في الألفاظ آنفة الذكر هو شيء مسموع في هذه الألفاظ وليس بقياس متلئبّ، وإنما يحُفظ عن العرب كما قالوا(٣).

والهمزة هو «النَّبر» وهو ما التزمته العربية الفصيحة في الشعر القديم، ثم في لغة التنزيل(٤).

وقد يكون تحقيق الهمزة من عادات النطق لدى تميم، وليس لعلة صوتية، فقد عُرف عن رؤبة الراجز أنه كان يهمز «الثندؤة» و«سئة» القوس، والعرب لا تهمزهما(٥).

---

(١) الجمهرة ٣/٢٩٢، المخصص ١٤/١٣.

(٢) انظر قول ابن جني في الحركات أبعاض حروف المدّ في سر صناعة الإعراب.

(٣) المخصص ١٤/١٣.

(٤) والنبر في لغة المعاصرين هو الضغط الذي ينتج عنه صوت يتأتّى من انطباق الوترين الصوتين والغضروفين الهرميين في الحنجرة انطباقاً كاملاً شديداً بحيث لا يسمح للهواء بالمرور فينحبس داخل الحنجرة ثم يسمح له بالخروج على صورة انفجار، ومن هنا فالهمزة صوت انفجاري. واختلف في الهمزة أمجهورة أم مهموسة، وهي مجهورة لدى سيبويه وشديدة. الكتاب ١/٤٠٥ ـ ٤٠٦.

(٥) جوامع إصلاح المنطق ص ٧٧.

كما روي أيضاً أن العجاج كان يكثر من الهمز فيهمز ما لم يسمع همزه نحو: العألم والخأتم في «العالَـم والخاتم»(١).

قلت : إن التحقيق في الهمزة من العادات اللغوية، ولولا العادة والدربة ما كان للعجاج أن يركب هذا المركب الخشن.

وليس لنا أن نتمسـك بتحقيق الهمزة لدى تميـم دون أن يُشار إلى سبب ذلك كما أن قلب الهمزة وليس بدلاً، لم يكن في كل موضع وإن كثرت الشواهد.

إن تحقيق الهمزة قد يأتي ابتعاداً من مقطـع طويل يحدثه ألف المدّ الذي يليه صامت ساكن (وهو ما يدعَـى التقاء الساكنين في مصادرنا اللغوية). ومن هنـا قرىء في الفـاتحة ﴿**ولا الضالين**﴾(٢) بـالهمز، وهـذا كقولهم في «دابّـة» و«شابّة»: «دأبّة» و«شأبّة»(٣).

وقال أبو زيد : سمعت عمرو بن عبيد يقرأ: ﴿**فيومئذ لا يُسأل عن ذنبه إنسٌ ولا جـأن**﴾(٤)، فظننتـه قـد لحن حتى سمعت من العـرب «دأبّـة» و«شأبّة»(٥).

أقول : وليس من هذه القراءات مـا سمع من صيرورة «افعالّ» و«افعألّ» في الشعر كقول كثيّر :

وأنتَ ابن ليلى خيرُ قـومك مشهـداً إذا ما احمأرَّت بالعبيـط العـواملُ(٦)

وقول الفرزدق :

رأتْ كَمَـراً مثـل الجلاميـد فُتِّحـت أحاليلهـا لمـا اثـمأرَّت جذورهـا(٧)

---

(١) سر صناعة الإعراب ١/١٠٢.
(٢) سورة الفاتحة ٧.
(٣) البحر المحيط ١/٣٠.
(٤) ٣, سورة الرحمن.
(٥) البحر المحيط ١/٣٠.
(٦) الديوان ص ٢٩٤.
(٧) النقائض ١/٥٢٧.

ومما أنشده الفراء :

قـد بَكَـرَت شَبَـوةُ تربئـرُ تكسـو استَها لحماً وتتمَطـرّ(١)

والذي دعا إلى هـذا أن ما جاء على «افعالٌ» من الأفعـال، وما يشتق منها من الأبنيـة لا يمكن أن يدخل البنـاء الشعري إلاّ أن يكـون من المتقارب الـذي يمكن منه كما جاء ذلك في شواهد نادرة.

ومن تحقيق الهمزة في لغة تميم ذهابهم فيما كان أوّله واو مكسورة مما كان على بناء «فعـال» و«فعالة» إلى الهمزة، فقالوا: إسـادة في وِسادة وإشاح في وِشاح وإعاء في وِعاء(٢).

وقد يبدو غريباً أن يكون في لغة تميم «عظاية» و«عباية»، وليس «عظاءة» و«عباءة»(٣). ومن الغـريب أن «العباءة» بـالهمزة، وهي الشائعـة في الفصيحة المعاصرة هـي عاميّة في الفصيحة القديمة كما في كتب اللغة.

ومن الأصوات الصـامتة الضاد والظـاء، وقد اختلفت لغـة تميم عن لغة الحجـاز فيهما، وعن الفـرّاء: أن أهل الحجـاز وطيّء يقـولـون: فـاظت نفسـه، وقضاعة وتميم وقيس يقولون. فاضت نفسه على مثال: فاضت دمعته(٤).

وجاء في «لسان العرب» : فاض يفيض فيضـاً وفيوضاً أي مات، وفاشت نفسه فيضاً خَرَجَت لغة تميم وأنشد:

تجمَّـعَ النـاس وقالـوا عِـرسُ ففُقِّئَـت عـين وفاضـت نفسُ(٥)

وقال المفضّل : من العرب من يقول: «الضهر» ويبدل الظاء ضاداً فيقول: أشتكي ضهري(٦).

---

(١) المذكر والمؤنث ص ٦٠.
(٢) البارع ص ٥١٠، اللسان ٧/٤٣٣.
(٣) القلب والإبدال لابن السكيت ص ٥٦.
(٤) التهذيب ١٤/٢٩٧ (قاظ)..
(٥) لسان العرب (فيض).
(٦) التكملة ٢/٤٢.

أقول : إن جملة هذه التحوّلات الصوتية تتصل بألفاظ بعينها، فهي من مادة الإبدال، ولا تؤلّف ظاهرة لغوية لطائفة من الناس في بيئة، ويدخل في هذا قلب السين صاداً أو زاياً أو غيرهما.

ولا أشكّ في أن من يقول : «وَدّ» في «وتد» نتيجة لإدغام التاء في الدال من تميم أو غيرها، فقد يحصل هذا أو نظيره في جهات عدّة لمن ألف الإدغام.

ومن هذه الفرائد مما ورد في لغة تميم أو زعم أنه فيها الإبدال بين الجيم والشين قولهم: «أشاء» بمعنى «أجاء» أي ألجأ(١)، ومنه ما ورد في المثل:

«شرُّ ما يشيئك إلى مخّة عرقوب»(٢).

ومن هذا قول زهير عن ذؤيب:

فيالَ تميمٍ صابروا قد أشِئتُمُ إليه وكونوا كالمجرَّبة البُسْلِ(٣)

أقول : و«الشين» في هذه الشواهد ليست شيناً فصيحة ولكنها الشين المشوبة بالجيم أو هي كالجيم المعاصرة في بعض البلدان كالبلاد الشامية، وهي الجيم القروية في جنوبي العراق. وهذه الجيم المشوبة بالشين هي والجيم المعاصرة متحدة في المخرج والصفة، وهي ليست شيناً وذلك لأن الجيم مجهورة والشين مهموسة(٤).

ومن هذه الأصوات ما كان بين الجيم والياء، فالجيم تبدل ياءً، ذكر الأزهري: أنها لغة في تميم معروفة(٥). والذي جاء منها قولهم: صهري في صهريج(٦)، وقولهم «سَيَرة» في شَجَرة(٧).

---

(١) معاني القرآن للفراء ٢/ ١٦٤، الصحاح ١/ ٥٩، اللسان (جيأ).
(٢) المصادر السابقة.
(٣) الصحاح ٢/ ٥٩.
(٤) اللسان ٢/ ٢٠٥، اللسان ٦/ ٢٦٣.
(٥) التهذيب ١٣/ ٢٧٥.
(٦) المخصص ١٤/ ٢٣٤ أمالي القالي، الإبدال لأبي الطيب اللغوي ١/ ٢٦١.
(٧) القلب والإبدال لابن السكيت ص ٢٩.

أقول : إذا كان هذا كل مـا ورد من إبدال الجيم ياءً فهل لي أن أقول: إنها ظاهرة صوتية تتّسم بها لغة؟.

ومثل هذا الإبـدال عكسه، وهو إبـدال الياء جيماً، وقد ذكر سيبـويه(١) وابن السراج(٢): أنه ينسب إلى بني سعد من تميم.

وفي «شرح الشافية» للرضي: إنها لغة ناس من تميم(٣)، ويتم هذا في حال الوقف، والياء شديدة أو خفيفة تبدل جيماً(٤).

وتعليل سيبـويه يكـون في خفاء اليـاء وقرب الجيم منهـا في المخرج هـو كونها أظهـر من الياء(٥). فيقال في «تميميّ» و«عليّ»: تميمج وعَلج، ومنـ ـول الراجز:

خـــالي عُـــوَيفٌ وأبـو عَلَـــجٍّ المطعمـــان اللحـــم بالعَشِـــجِّ
وبالغـــداة فلَـــق البـرنـجِّ يقطـــع بالـــودّ وبالصيصجِّ

يريد : عليّ، والعشيّ، والبَـرنيّ، والصيصيّ(٦).

أقول : لم نَـر غير هذا الشاهد وهو الرجز الذي رُوي روايتين مختلفتين.

وقد ذكروا أن تميماً تلحق القاف باللهاة حتى تغلظ جداً فيقولون القوم، بين الكاف والقاف، وهـذه لغة فيهم(٧). وهي بذلك تبتعد عن الجهـر الذي هو صفة القاف وتقرب من الكاف المهموسة.

أقول : وهـذا هو الشـائع في عصرنا في عـامية أهل العـراق وأهل الخليج

---

(١) الكتاب ٢/٢٨٨.
(٢) الأصول ٢/١٣٨.
(٣) شرح الشافية ٢/٢٨٧.
(٤) الكتاب ٢/٢٨٨.
(٥) المصدر السابق.
(٦) المصدر السابق، سر صناعة الإعراب ١/١٩٢.
(٧) الجمهرة ١/٢٥ الصاحبي ص ٥١.

ونجد والسودان وغيرهم. غير أن اللغويين لم يستشهدوا على هذه الظاهرة إلا ببيت لم ينسبوه إلى صاحبه(١)، وأنشدوا:

ولا أكول لكِدرِ الكَوْم كَد نضِجَت ولا أكول لباب الدار مكفول(٢)

أقول : وكأن هذا الشاهد لا يحمل على الاستيثاق منه، فقد روي في عدة روايات ومنها:

ولا أكول لقدر القوم قد غليت ولا أكول لباب الدار مغلوقُ(٣)

وجاء في «الصحاح» للجوهري من الأقوال التميمية قولهم: ما أدري أين بكع بمعنى بَقَع أي ذهب(٤).

ومن هذا الإبدال الذي نسب شيء منه إلى تميم، وهو ما كان بين الثاء والفاء، فقد ذكروا جملة كلمات بالثاء، في لغة تميم، وهي بالفاء في لغة أهل الحجاز، ومن هذه: اللثام(٥) والأثاثي ومغثور (وهو ضرب من الكمأة) وثوم في لغة تميم(٦)، وهي جميعها بالفاء في لغة أهل الحجاز أقول: وإذا كان هذا العدد القليل في لغة ما، فهل يؤلّف ظاهرة لغوية؟ ولو كان كذلك لكان عامة الألفاظ التي فيها الفاء تكون ثاء في لغة تميم، ولم يقع شيء من هذا.

ولا أدري كيف يتيسرّ لنا أن نواجه ما قيل من أن «الجَدَث هو القبر في لغة الحجاز، وهو «الجدَف» في لغة تميم!!.

ومثل هذه الفرائد القليلة التي لا تؤلف ظاهرة لغوية ما كان إبدال الميم نوناً ومنه:

---

(١) لم ينسب في كثير من المصادر كإصلاح المنطق ص ٢١٣، والصحاح ٦/٤٤٨، في حين تنسب إلى أبي الأسود في اللسان، وليس في ديوانه.

(٢) الجمهرة ١/٥.

(٣) فصيح ثعلب ص ٤٠.

(٤) الصحاح (بكع).

(٥) الصحاح ٥/٢٠٣١، المخصص ٤/٣٩، اللسان ١٢/٥٣٣.

(٦) وقرأ عبد الله بن مسعود، وهو هذلي: «وثومها».

الدِمْدِم وهو الصلّيان المحيل في لغة بني أسد، وهو الدنْدن في لغة تميم.

ومن هذا مما يدخل في الميم والنون: الأَيْم بمعنى الجان من الحيّات في لغة أهل الحجاز، وهو «الأين» لدى تميم(١).

كما أبدلوا اللام في إسرائيل نوناً(٢)، وكذلك «لعنَّك» في «لعلَّك»(٣).

كلمة أخيرة في هذه المخلّفات اللغوية :

أقول : ليس لنا أن نتخذ من هذه الشذرات فيما يتصل بالإبدال مادة تفي بحاجة أهل العلم فنبسط أمامهم مادة لغوية كافية في معرفة الجانب الصوتي في لغة تميم، كما أنه ليس في طوقنا أن نضع شيئاً مماثلاً في لغة أهل الحجاز مع علمنا أن الخارطة اللغوية لدى كلٍّ من هؤلاء وأولئك غير معروفة على وجه من العلم، وإن هذه الأقاليم الواسعة تشتمل على لغات عدّة، ولكن التاريخ اللغوي لم يذكر عنها ما فيه الكفاية.

ما يتصل بالأبنية :

تشدّد النون في الأسماء الموصولة وأسماء الإشارة في لغة تميم فيقولون: اللذانّ واللتانّ وهذانّ وهاتانّ، وتخفف في سائر لغات العرب(٤).

وجاء في كتب اللغة والنحو أن تميماً يقولون: مبيوع ومديون ومصوون(٥)، وهي جارية على القياس أكثر مما درج عليه الحجازيون في قولهم: مَبيع ومَدين ومَصون(٦).

---

(١) معجم مقاييس اللغة ١/١٦٦، المخصص ٨/١٠٩.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١/٢٣١.

(٣) الصحاح ٦/١٩٦.

(٤) شرح التصريح للأزهري ١/١٣٢.

(٥) أقول: ليس للدارس أن يعتمد الشعر فيتخذه مادة لغوية تشير إلى الوجه الذي جرى عليه المعربون، فأنت تقرأ قول علقمة:

حتى تذكّر بيضات وهيّجه ... يوم رذاذ عليه الريح مغيوم

وليس علقمة هذا قد جرى في استعماله «مغيوم» على لغة قومه، ولكن حاجته إلى القافية ساقته إلى ذلك.

(٦) الممتع في الصرف لابن عصفور ٢/٤٦٠، تاج العروس ٩/٢٦١.

ومثل هذا ما كان في لغة تميم أن أصل «هَلُمّ» هو «لُمَّ»(١).

وذكروا أن أهل الحجاز يقولون فتنت الرجل، وأنا فاتن وهو مفتون، وتميم وربيعة وأسد يقولون: أفتَنت الرجل(٢).

و «العُنق» : مذكّر لدى تميم وربيعة مع التخفيف، وهو مؤنث في لغة أهل الحجاز مع التثقيل(٣).

و«الذَّهَب» : مذكّر لدى تميم وغيرهم، فيقولون: هو الذهب، وأما الحجازيون فيقولون: هي الذهب(٤).

و«العَضْد» مؤنث لدى تميم مع التخفيف، وغير تميم يقولون «العَضُد» ويذكّرونها(٥).

و «عُدُس» : بضم الدال في لغة تميم، وفي سائر العرب بفتح الدال(٦).

و«يستحي» بياء واحدة في لغة تميم، وسائر العرب يستحيي بياءَين(٧).

ما يتصل بالإعراب :

إن بني تميم افترقت فرقتين في إعراب «أمس» فمنهم من أعربه بالضمة رفعاً، وبالفتحة نصباً وجرًّا، قالوا: مضى أمسُ، واعتكفتُ أمسَ، وما رأيته مذ أمسَ، قال الشاعر:

لقد رأيت عجباً مذ أمسا(٨)

---

(١) الخصائص ١/١٦٨ ويتبعها الضمائر فيقولون: هلمَّ وهلمّا وهلمّوا وهلمُمْن.

(٢) معاني القرآن للفراء ٢/٢٩٤، التهذيب ١٤/٢٩٨، فعلت وأفعلت للسجستاني ص١٩٩.

(٣) الأصول لابن السراج ٢/٤٨٠.

(٤) التهذيب ٦/٢٦٣.

(٥) المذكر والمؤنث لأبي بكر الأنباري ص ٥٦.

(٦) اللسان ٦/١٣٤.

(٧) الأشباه والنظائر ١/٤٠ ـ ٤١.

(٨) الكتاب ٢/٤٤.

مصادر البحث

الإبدال، لابن السكيت، تحقيق حسين شرف، القاهرة ١٣٩٨ ـ ١٩٧٨.

الإبدال، لأبي الطيب اللغوي، تحقيق عز الدين التنوخي، دمشق ١٣٨٠ ـ ١٩٦٣.

الأشباه والنظائر، للسيوطي (طبع حيدر آباد ـ الدكن).

إصلاح المنطق، لابن السكيت، تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون، القاهرة ١٣٦٨ ـ ١٩٤٩.

الأصول في النحو، لابن السراج، تحقيق عبد الحسين الفتلي، دار الرسالة ـ بيروت.

الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، طبعة التقدم، وطبعة دار الكتب المصرية (مصورة).

الاقتراح، للسيوطي (ط. حيدر آباد ـ الدكن).

الأمالي، لأبي علي القالي، القاهرة ١٣٤٤ ـ ١٩٢٦.

البارع، للقالي، تحقيق هاشم الطعان، نشر مكتبة النهضة ـ بغداد.

البحر المحيط، لأبي حيان (مطبعة السعادة ١٣٢٨).

بغية الوعاة، للسيوطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مصر ١٣٨٤ ـ ١٩٦٥.

التبيان في تفسير القرآن، للطبرسي (ط. طهران).

التكملة والذيل والصلة، للصنعاني، القاهرة ١٩٧٠.

تفسير الطبري، (ط مصر).

تهذيب اللغة، للأزهري: تحقيق عبد السلام هارون وآخرين، القاهرة ١٣٨٤ ـ ١٩٦٤.

تاج العروس، للزبيدي، مصر ١٣٠٦ ـ ١٣٠٧.

تاريخ الرسل والملوك، للطبري، طبع ليدن، ونشره أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف.

الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، القاهرة ١٩٣٥ ـ ١٩٥٠.

جمهرة أشعار العرب، لأبي زيد القرشي (طبعة وصورة ـ بيروت).

جمهرة اللغة، لابن دريد، حيدر آباد، ١٣٤٤، وطبعة بيروت.

خزانة الأدب، للبغدادي، بولاق ١٢٩٩، وبتحقيق عبد السلام هارون، القاهرة ١٣٨٧ ـ ١٩٦٧.

الخصائص، لابن جني، بتحقيق محمد علي النجار، دار الكتب المصرية ١٣٧٢ ـ ١٩٥٢.

ديوان الأخطل، نشره أنطون صالحاني، الطبعة الأولى الكاثوليكية بيروت.

ديوان ذي الرمة، تحقيق..... مكارتني (مطبعة كمبردج) ١٩١٩.

ديوان الفرزدق، القاهرة ١٣٥٢.

ديوان كثيّر عزة، تحقيق محمد بن شنب، الجزائر ١٩٣٠.

ديوان الهذليين، دار الكتب المصرية ١٣٦٩ ـ ١٩٥٠.

ذيل الأمالي والنوادر، لأبي علي القالي، القاهرة ١٣٤٤ ـ ١٩٢٦.

زاد المسير، لابن الجوزي، (طبع المكتب الإسلامي) ١٩٦٤ ـ ١٩٦٧.

سر صناعة الإعراب، لابن جني، الجزء الأول، تحقيق السقّا وآخرين، مصر ١٣٧٤ ـ ١٩٥٤.

شرح أشعار الهذليين، للسكّري، القاهرة ١٣٨٤ ـ ١٩٦٣.

شرح ديوان جرير، بتحقيق الصاوي، القاهرة.

شرح شواهد مغني اللبيب، للسيوطي، بيروت ١٣٨٦ ـ ١٩٦٦.

شرح الشافية، لرضي الدين الاستراباذي، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد مع جماعة آخرين، القاهرة ـ بلا تاريخ.

شرح ابن عقيل...، تحقيق محيي الدين عبد الحميد، القاهرة ١٣٩٥ ـ ١٩٧٥.

شرح الكافية، لرضي الدين الاستراباذي، الآستانة ١٢٧٥هـ.

الشعر والشعراء، تحقيق أحمد محمد شاكر، ١٩٦٦، وبتحقيق إحسان عباس، دار الثقافة ـ بيروت.

الصاحبي، لأحمد بن فارس، بتحقيق سيد صقر ـ الرياض..

الصحاح، للجوهري، تحقيق أحمد عبد الغفور عطّار، القاهرة ١٣٧٦ ـ ١٩٥٦.

طبقات فحول الشعراء، لابن سلاّم، تحقيق محمود محمد شاكر، دار المعارف ١٩٥٢.

الفائق، للزمخشري، نشر الحلبي بمصر.

الفاضل، للمبرد، تحقيق الميمني، القاهرة ١٩٧٥ ـ ١٩٥٦.

فصيح ثعلب، القاهرة ١٩٤٩.

فعلت وأفعلت، للسجستاني، تحقيق خليل العطية، بغداد ١٩٧٩.

القلب والإبدال، لابن السكيت، نشره هنز، بيروت ١٩٠٣.

الكتاب، لسيبويه، بولاق ١٣١٦ ـ ١٣١٧، وطبعة عبد السلام هارون، مصر ١٩٧٧ وما بعدها.

الكامل، لابن الأثير، طبع الحسينية بمصر.

الكامل، للمبرد، تحقيق محمود محمد شاكر، وبتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم.

الكشاف، للزمخشري (مطبعة الاستقامة).

لسان العرب، لابن منظور، بولاق ١٣٠٠ ـ ١٣٠٨، وطبعة بيروت (دار صادر).

اللغات في القرآن، رواية ابن حسنون، طبع بيروت.

ما ورد من لغات القبائل (على هامش تفسير الجلالين).

مجاز القرآن، لأبي عبيدة، تحقيق فؤاد سزكين، القاهرة ١٣٩٠ ـ ١٩٧٠.

مجالس العلماء، للزجاجي، تحقيق عبد السلام هارون، الكويت ١٩٦٢.

مجمع البيان، للطبرسي (ط. طهران).

المحكم، لابن سيده (ط. الخانجي) القاهرة.

المخصص، لابن سيده، بولاق ١٣١٦.

المزهر، للسيوطي، تحقيق محمد جاد المولى وصاحبيه، القاهرة.

المستقصى في أمثال العرب للزمخشري، حيدر آباد ١٣٨١ ـ ١٩٦٢.

معاني القرآن، للأخفش، تحقيق فائز فارس، الكويت ١٤٠٠ ـ ١٩٧٩.

معاني القرآن، للفراء، تحقيق محمد يوسف نجاتي ومحمد علي النجار، القاهرة ١٣٧٤ ـ ١٩٥٥.

معجم مقاييس اللغة، لابن فارس، تحقيق عبد السلام هارون، مصر ١٣٩١ ـ ١٩٧١.

المفصل، للزمخشري، طبع مصر.

المقاصد النحوية، للعيني (على هامش الخزانة) ١٢٩٩.

المقصور والممدود، لأبي بكر الأنباري (ط. السعادة).

الممتع في الصرف، لابن عصفور، تحقيق فخر الدين قباوة، حلب ١٩٧٠.

الموشح، للمرزباني، تحقيق البجاوي، مصر ١٣٨٥ ـ ١٩٦٥.

النشر في القراءات العشر، لابن الجزري، بتحقيق محمد أحمد دهمان، دمشق ١٣٤٥.

النقائض، لأبي عبيدة، ليدن ١٩٠٥.

النهاية في غريب الحديث، لابن الأثير (المطبعة العثمانية) ونشره محمود الطناحي.

النوادر في اللغة، لأبي زيد، (طبعة الكاثوليكية) بيروت.